

# الكابوس

## همدان دماج

لم يكن قد أدرك بعد، أثناء عودته من العمل، أن لحظات تفكيره العميق بدأت تضعف تركيزه عند عبوره الشارع السريع. فمنذ أن استيقظ مرتجفاً تلك الليلة غارقاً في بحيرة عرقه البارد، أصبح أكثر قلقاً ووحشة، وباءت بالفشل كل محاولات الجميع لطمأنته، وبدأت علاقته بالأشياء تضحل رويداً رويداً. لم يكن كابوساً عادياً كتلك التي اعتادها منذ أسابيع، بل لم يكن كابوساً على الإطلاق؛ كان حقيقة شاهد تفاصيلها بدقة أكثر من مشاهدته لتفاصيل هذا اليوم الضبابي الكئيب. وعندما حاول أن يشعل نور غرفته المظلمة في الطابق العلوي، أدرك أن مفاصله المرتعشة لم تعد قادرة في تلك اللحظات على حمله. وأصيب بالهلع عندما شعر أنه لم يعد قادراً حتى على البكاء.

\* \* \*

أحكم إغلاق معطفه بعشوائية، وفتح الباب الزجاجي بعنف دون أن يكثرث للزبائن الذين كانوا يقرأون قائمة الأسعار بجوار الباب، والذين نظروا إليه شزراً، لكنه كان قد قطع مسافة كبيرة وتوارى عند أول منعطف. "نعم، لم يكن كابوساً"، فكر ملياً... فرائحة إطارات الشاحنة لاتزال عالقةً في رئتيه، والصور المتكسرة للغيوم الرمادية لاتزال ملتصقةً بجدار قزचितه التي أصابها الذبول مثل جسده النحل يوماً بعد يوم.

- "لكنه لم يكن حلماً!".

كان يردد دائماً بإصرار كلما حاولوا تهدئته.

\* \* \*

كعادتها لا ترتسم الألوان في الحلم، وتختلط دائماً الأماكن والصور. "كنت غارقاً في التفكير في شيءٍ ما، شيءٍ لم أعد أتذكره، عندما قطعت الشارع السريع عائداً من العمل في ظهيرة يومٍ غائم..."، ولم يتناه إلى سمعه صوت إطارات الشاحنة

إلا بعد فوات الأوان. حتى تلك الأصوات التي ارتفعت من الرصيف المقابل قبيل ذلك، كانت بلا معنى ولم تستطع ارتجافة عضلات ساقيه أن توقف تسارع الأحداث، فالتصق جسده الضئيل بمقدمة الشاحنة، ثم ارتمى متناثراً تحت عجلاتها الضخمة التي رسمت على طول الشارع خطوطاً سوداء ذات رائحة كربونية خانقة.

"كانت الغيوم القطنية الداكنة تتحرك أمام عينيّ بتلقائية، وبدأت رؤوس كثيرة تظهر ثم تختفي، يرتسم على ملامحها الخوف والفرع. ومن الأعلى بدا المنظر واضحاً، ففي منتصف الشارع كان الناس يتقاطرون كنملٍ حائرٍ حول صرصارٍ ضخّم انقلب على ظهره".

عندما استيقظ مرعوباً، كان شيءٌ ما قد فقد بداخله؛ شيءٌ اكتسب لغيابه حساً فيزيائياً، فشعر بجسده خفيفاً مجوفاً. كانت الغرفة مظلمة تفوح منها رائحة كربون محترق.

\* \* \* □

منذ تلك اللحظات العصبية والهاجس لا يفارقه أبداً، فبالغ في الحذر عند عبوره الشارع، وباتت أي حركة عادية تبدو له بداية للنهاية الوشيكة. كان الجميع قد لاحظ الضمور الذي أصابه. حتى هو استطاع بعد فترة أن يلاحظ التغير الذي طرأ على تصرفاته في الآونة الأخيرة، فقد لاحظ أنه لم يعد يمارس هوايته المفضلة في عدّ خطواته على الأرصفة، وأنه بدأ "يقضي حاجته" أكثر من المعتاد دون أن يضطر لخلع جميع ملابسه كما تعود دائماً.

\* \* \*

"كان يوماً ضبابياً كهذا..."، أنهكه الهاجس طويلاً. كان قد قرر طرد تلك الصور المتتابعة من مخيلته، أن يستريح من التفكير فيها، خاصة وأنهم بالأمس قد أنذروه بالطرد بعد أن نسي الفرن الرئيسي مشتعلًا في إحدى نوباته الليلية، لكن دون جدوى. تنهد بأسى وهو يرنو إلى الغيوم الداكنة التي كانت تتحرك بسرعة. كان ذهنه مشتتاً كالعادة وواصلت قدماه المسير بخفة تذرعان الرصيف. كانت أصوات متفرقة قد ارتفعت من

الرصيف المقابل لم يميزها. وتدارك لسمعه وقع شيء مهول  
يتحرك. ارتعشت عضلات ساقيه، وبسرعة تكسرت صور غيوم  
قطنية في عينيه، قبل أن تتدارك في ذهنه الأحداث وتزعج أنفه  
المهشم رائحة كربون خانق.

**شتاء 1998**